غيلان.. شهيد الحرية

نحن الآن مع داعية من دعاة الحرية.. ولسانًا من ألسنتها المدوية، إنه غيلان الدمشقي أحد الدعاة إلى الله، والوعاظ الفقهاء الذين بلغ بهم العلم مبلغًا فكريًا كبيرًا.. ففي عهد الخلافة الأموية، وفي زمن الخلفاء المستبدين، الذين تولوا أمر الأمة، بالور اثة والتسلط والقهر والسيف.. خرج هذا الصوت الحر القوي العالي، ليجهر في وجوههم بالحق، ويؤرق عروشهم بصرخاته الجريئة الصريحة.. نادى بحرية الإنسان، فهو مختار في تصرفاته وصانع لأفعاله.. ومن هذه الوجهة، انطلق في جهاده ضد الجبرية ودعاتها ومنتحليها وكل من ينسب الخطأ والظلم للخالق سبحانه، ليبرئ الإنسان الذي اقترف الفعل.. وكانت السلطة في ذلك الوقت سلطة الأموين.. يروق لها بعض هذه الأفكار، حتى تبرر ظلمها للعباد، وبطشها بالرعية، وقهرها للأمة، حتى تتحجج في النهاية، بأن ما حدث ويحدث، إنما هو بإرادة الله تعالى وليس للإنسان دخل فيه.. فيصمت الناس ويرضون بما وقع عليهم من ظلم، لأنه حكم الله كما يظنون.! وهذه دعاوى يشجعها عشاق الظلم والاستبداد، الذين يبحثون عن أي حُجة يخدعون بها الناس، ويبررون بها أفعالهم القائمة على الغلبة والقهر.. ثم يستقطبون من حولهم، ومن يرونهم من علماء السوء الخونة لدينهم وعلمهم، ليقوموا بهذه المهمة الخسيسة.. مهمة تخدير الأمة، وتسكين الجماهير بخطابهم الديني المزيف، الذي يبرأ منه الإسلام العظيم.. دين الثورة والحرية.!

إن القرآن الكريم رفض هذا المنطق الجبري و أقام على أصحابه الحجة فالله تعالى يقول: (كل نفس بما كسبت رهينة) ويقول: (ولا تزوا وازرة وزر أخرى) ويقول: (جزاء بما كانوا يعملون) ويقول: (جزاء بما كانوا يكسبون)..

ويقول: (ذلك جزينهم ببغيهم) [1] فكل فعل يُسأل عنه صاحبه، ويتحمل المسؤولية فيه وعنه.! لقد كان غيلان لا يخشى في الحق لومة لائم، وكان ثورة بمعنى الكلمة، ثورة على الظلم الفساد، ثورة على الجمود والتخلف.. كان يرمي بكلمة الحق في وجه السلطة الظالمة، ويُطلقها في وجه كل من يقف خلفهم من العلماء المضللين.. فلا يمكن أن يقوم هؤلاء بظلم الناس وقهرهم وسرقة قوتهم، ثم يدّعون أن الله تعالى هو الذي أراد ذلك الظلم وقرره.! ولعمري فهذا تطاول خبيث على مقام الألوهية العظيم، بل أبشع أنواع الافتئات على الله تعالى، الذي يحرّم الظلم ولا يرضى به.. ومثل هذه الدعوات التي تُناصر الحرية وتدعو إلى محاسبة الحكام.. تُثير الفزع في نفوس المتسلطين المستبدين الظالمين من الملوك والسلاطين، وتقض مضاجعهم، وتجعلهم يشعرون بالخطر الكبير على عروشهم.!

وحينما جاء عمر بن عبد العزيز للسلطة وتولى الخلافة، بسط يده لجميع مخالفيه وحاورهم، وكان منهم غيلان، الذي سمع عمر عن نزاهته وتقواه وورعه وجهره بالحق، فناقشه ودار بينهما حوار حول بعض المفاهيم، فلما استشعر عمر تقواه وورعه، طلب منه أن يُعينه على تأدية أمانته في حكم المسلمين، فقال له غيلان: ولني بيع المظالم التي ترجع لأعمامك وآبائك وأجدادك، تردها وتبيعها لتكون في بيت مال المسلمين.. فأطلق عمر يده في ذلك.. فوقف في السوق وهو يبيع ممتلكات أمراء بني أمية، فكان ينادي عليها بقوله: (هلموا إلى متاع الخونة).

ونادى على جوارب خز قد تآكلت، بلغت قيمتها ثلاثين ألفًا، فقال: " من عذيري ممن يزعم أن هؤلاء أئمة عدل؟ قد تآكلت هذه الجوارب في خزائنهم، والفقراء والمساكين يموتون جوعًا".. فهم الظلمة ومن دافع عنهم من

---

(١) الأنعام:١٤٦

الظلمة.! ويمر هشام بن عبد الملك من السوق ويسمع هذا التشنيع فيقول: إن هذا ليعيبني ويعيب آبائي.. والله لإن أمكنني الله منه لأقطعن يديه ورجليه.. ويموت عمر بن عبد العزيز، ويأتي عهد هشام، فبعث إليه واستنطقه فقال: "أعوذ بجلال الله أن يأتمن الله خوانًا أو يستخلف خزانًا؛ إن أئمته هم القوامون بأحكامه، الراهبون لمقامه؛ لا يول الله وثابًا على الفجور، ولا شرابًا للخمور، ولا ركابًا للمحظور" ثم يهرب مع صاحبه صالح إلى أرمينية، ويُقبض عليهما، ويُرسل غيلان إلى هشام، لتدور مناظرة عنيفة بين الطرفين.. لم يتورع حينها غيلان أن يقول الحق في وجه المتجبر، في هذا الموقف العصيب، الذي قد يَرتجي رجل غيره سُبل الشفاعة والتذلل، ويطلب العفو والسماح، لكن.. ما كان لهذه النفس الثائرة أن تعرف معنى التراجع والذلة والاستسلام.!

ولم يسلم غيلان الدمشقي من التكفير.. والادعاء كذبًا على رسول الله، فقد شاعت أحاديث مكذوبة ترميه وتغمزه مثل: "يكون في أمتي رجلان أحدهما وهب يهب الله له الحكمة والآخر غيلان فتنته على هذه الأمة أشد من فتنة الشيطان"(١) و مثل: " يكون في أمتي رجل يقال له غيلان هو أضر على أمتي من إبليس"(٢) وغيرها من الأحاديث التي نسبت إلى الرسول بهتانًا وزورًا.

إن كثيرين من المنغلقين والسطحيين والحرفيين من أنصار التيارات السلفية التي تُناصر عقيدة ولي الأمر! وتجعلها فوق عقيدة الله ورسوله.. ليزعمون أن غيلان زنديقٌ.! وهو أمر طبيعي أن يروج ذلك التشويه دعاة الحكام، وفقهاء السلاطين، وعلماء السلطة، والقائمين على مشروع تخدير الأمة، حتى يخفوا أثره الثائر، ويشوهوا سيرته الحرة، فلا يتسرب منها شيء

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر

(٢) نفس المرجع

إلى عقول المسلمين، أو تنتشر بينهم مثل دعوته، التي تنادي بالحرية والوقوف في وجه الظلمة المستبدين.

ومن هنا نقول لهم: هل يُعقل أن يقوم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، و خامس الخلفاء الراشدين، وبقية السلف الصالح، ومجدد الإسلام في قرنه الأول، فيجعل من عماله والقائمين على أحكامه، زنديق منحرف؟! كيف لمثل هذه المنحرف أن يقوم على دين الله بالأمر المطلوب، والأمانة الواجبة؟! وكيف يعتمد عليه عمر ليكون ركنًا ركينًا في ثورته الإصلاحية التي أعلنها في بيت الحكم؟! أعتقد أنها مُفحمة، والرد مهما كان مبررًا سيمس عمر بن عبد العزيز، على الصورة التي يرسمها المتهمين لغيلان.

بل انظر لأبلغ من هذا.. وهو الكتاب الذي أرسله لعمر بن عبد العزيز في بداية عهده، حتى نعلم دين الرجل وتقواه ونزاهته، ونستطيع من جُمله ومفرداته أن نجسد معالم شخصيته الر اقية البعيدة عن الزندقة.. فكم في التاريخ من مظلومين، شُوهت حقيقتهم لأغراض سياسية ومصالح ذاتية.!

ففي جزء منه يقول لأشج بني أمية: أعلم يا عمر، أنّك أدركت من الإسلام خلقًا باليًا، ورسمًا عافيًا، فيا ميّتًا بين الأموات، لا ترى أثرًا فتتبع، ولا تسمع صوتًا فتنتفع، طفئ أمر السنّة، وظهرت البدعة، أُخيف العالم فلا يتكلّم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربّما نجحت الأمة بالإمام، وربّما هلكت بالإمام، فانظر أيّ الإمامين أنت، فإنّه تعالى يقول: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا..)(1) فهذا إمام هدى، ومن اتّبعه شريكان،

وأمّا الآخر: فقال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ)(2)

---

(1) الأنبياء: ٧٣

(2) القصص: ٤١

أما مسألة القدرية و انتسابه لها فإنه (في خلافةُ: عمر بن عبد العزيز استطالت قاماتُ: القَدريين في مقابلِ فقهِ الجبر الأموي، وبصورةٍ قلق معها شيوخ بني أمية، وبما أنّ عمر بن عبد العزيز يُعدُّ فيهم استثناءً، فلننظُر كيف كان تعاملُه مع هذا الانحراف العقدي؟ ما إن بلغَ «عمر» كلامُ غيلان الدمشقي في شأن «القدر» حتى استدعَاهُ وحاجّه داحضًا ببيانهِ شبهتَهُ المتهافتةِ، فلم يكن من غيلان إذ ذاكَ إلا أن أعلن توبته، راجعًا عما كان عليه قبلاً من مقالتهِ الضالّة.. وإذن.. فعمر و بالنظرِ إلى أنه لم يكن موتورًا سياسيًا، لم يُصعّد الأمر ويجتلب العقيدة فيحيلها بابًا من كتابِ السياسة، و إنما اشتغل على الترفقِ إذ جعل الحوارَ مكان السيف، وأعلن الاكتفاء بدحضِ الحجةِ بالحجةِ، وذلك أنّ من كنتَ و إياهُ في خصومة، ولم يعرف من الأسلحة غير الكلام، فليقابل إذن بكلامٍ مثلِهِ، وتلك هي المنهجية التي لم يبرحها خامس الخلفاء الراشدين طيلة مدةَ خلافتِهِ.)[1]

أما موته وشهادته، فإن هشامًا لما أغضبه قوله وغضب عليه، قال: من لهذا القدري فيحاججه، فأشاروا عليه بالأوزاعي، وتدور قصة مفبركة سخيفة بينه وبين الأوزاعي، وحوار ممجوج لا يصدقه عقل طفل صغير، ويحكم بعدها بكفره، ويصلبه هشام على (باب كيسان) في دمشق مع رفيقه (صالح)، ثم قطعوا أيديهما وبعدها أرجلهما، وجمع الناس لمشاهدته، فجاء أنصار الجبر ليديروا معه حوارًا فكريًّا، وأرادوا أن يقولوا له: إن الله هو الذي خلق فعلهم هذا فيه، فقالوا كيف صنع بك ربك؟ فقال لهم: لعن الله من فعل بي هذا، ونسب إليهم هذا الفعل المنكر، واشتد برفيقه العطش، فردوا عليه: لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم.! فالتفت غيلان من فوق صليبه،

---

(١) من مقال لخالد السيف بصحيفة الشرق العدد رقم (٤١٧) صفحة (١٨) بتاريخ (٢٤-١٠-٢٠١٣)

وقال لرفيقه: يزعم هؤلاء أنهم لن يسقونا حتى نشرب من الزقوم، كذبوا إن الذي نحن فيه لبشير بالجنة وبروح الله الذي سنصير إليه بعد ساعة، فاصبر يا صالح على ما أنت عليه، فصبر حتى فاضت روحه إلى بارئها، فصلى عليه غيلان الجنازة من فوق الصليب، وبعد أن فرغ خاطب الجموع، وقال: قاتلهم الله، كم من حق أماتوه، وكم من باطل أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أماتوه.. فأخذ حديثه يؤثر في الناس، فما كان من بعض حاشية هشام، إلا أن أبلغوه بما حدث، فأمر بقطع لسانه، حتى فاضت روحه إلى خالقها ضاربًا المثل بإخلاصه لأفكاره، وولائه لقول الحق، وثورته على الظلم، حتى آخر نفس في حياته.. وبعد قتله، فرح بمقتله خصومه من علماء السلاطين، وقالوا: (إن قتله أفضل من قتل ألفين من الروم!) هكذا يقولون في قتل رجل كان عدوا للظلم، رافضًا للقهر، ساهرًا على مصالح الأمة، مناديًا بالإصلاح، مناصرًا لحقوق الضعفاء.!